مِن جَوانبِ العَظَمةِ في شَخْصِيَّةِ الرَّسُولِ ﷺ (٤)
فَصَاحَتُهُ وَبَلَاغَتُهُ ﷺ

أ.د. نظير محمد عياد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للّهِ ربِّ العالمينَ، والعاقبةُ للمُتَّقينَ، وأُصلِّي وأُسلِّم على المبعوثِ رحمةً للعالمينَ، سيدنا ومولانا رسول الله صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وَمَن سار على دربه إلى يوم الدِّينِ، أمَّا بعدُ:

فلقد تعدَّدت جوانب العظمة في شخصيَّة النَّبي ﷺ وتنوَّعت، ممَّا يؤكد تفرده بكمال الصفات، ومن بين هذه الجوانب التي تشهد بعظمة الرسول ﷺ «فصاحته وبلاغته».

فقد عُرِف ﷺ بين النَّاس واشتُهر في قومه بفصاحة قوله، وروعة بَيَانِه، وعفَّة ألفاظه، وعذوبة كلماته، وسلاسة أسلوبه، ودقَّة تعبيره، وحُسن وصفه، فقد توافر له هذا كله وغيره؛ لأنَّه أُعْطِي جوامع الكلم.

ولعظمة هذا الجانب عنده ﷺ فقد عُنِيَ به العلماء قديمًا وحديثًا؛ إبرازًا لعظمة هذه الشخصيَّة في هذا المجال الذي لم يبارَ فيه، فلم يحاكِه بَشر مثله، ولم يصلْ إليه أحدٌ من البشر في بلاغة التَّعبير، وفصاحة اللسان، إلى جانب حُسْنِ البيان، وجمال الإفراد والتركيب، والبُعد عن التَّنافر بين الكلمات وكذا الحروف، ولا غرابة في ذلك؛ إذْ من المُسلَّم به، والمتعارف عليه أن مَن خالط العلماء وتربَّى في ساحة البلغاء يأتي حديثه من نبع البلاغة فائضًا، ومن مبدأ السَّلاسة رافدًا، ومن منطق الفصاحة مستمدًّا عذبًا سلسلًا، وإذا تقرَّر ذلك عند أرباب العقول، فكيف بمن ربَّاه رَبُّ العلماء والبلغاء -سبحانه وتعالى- وأوحى إليه ببليغ وحيه وإعجاز كلامه حتى أقرَّ بسطوته المخالفون، وأذعن لبلاغته

الكافرون، ولم يجدوا بُدًّا من الاعتراف بجلاله على كلِّ كلام، وعظيم سلطانه على كل خطاب! ومن هنا جاء الثَّناء على نبي الله ﷺ بمقتضى قوله عز وجلَّ:

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ﴾ (النجم: ٣-٥).

فممَّا لا ريب فيه، ولا يتسنى بحال إغفاله أنَّ لهذا الوحي المعجز أثرًا في بلاغة الحبيب المصطفى ﷺ لا يُجارى، وإشراقًا على كلامه لا يبارى، فاض على نفسه الشريفة، وسرى في وجدانه، وتغلغل في أعماقه؛ فظهر أثره على لسانه، وتحقق سمو مظهره في بلاغة كلامه، وفصاحة كلماته ﷺ.

وهذا ما بينه العَلَّامة الإمام الجاحظ عندما توقف أمام بلاغة النَّبي ﷺ؛ فقال: «وهو الكلام الذي قلَّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجلَّ عن الصنعة، ونزّه عن التَّكلف، وكان كما قال الله -تبارك وتعالى- قل يا محمد: (وما أنا من المتكلفين) فكيف وقد عاب التَّشديق، وجانب أصحاب التقعيب[1]، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغَّب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراثِ حكمةٍ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، وشيد بالتَّأييد، ويسر بالتَّوفيق، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبَّة، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حُسْنِ الإفهام، وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السَّامع إلى معاودته.

لم تسقطْ له كلمة، ولا زلت به قدم، ولا بارت له حُجَّة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب؛ بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصار، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصِّدق، ولا يطلب الفلج إلا بالحق، ولا يستعين بالخلابة، ولا يستعمل المواربة، ولا يهمز ولا يلمز، ولا يبطئ ولا يعجل، ولا يسهب ولا يحصر، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعًا، ولا أقصد لفظًا، ولا أعدل وزنًا، ولا أجمل مذهبًا، ولا أكرم مطلبًا، ولا أحسن موقعًا، ولا أسهل مخرجًا، ولا أفصح معنى، ولا أبين في فحوى؛ من كلامه ﷺ»[2].

وهذا الذي ذكره الإمام الجاحظ هو ما أكد عليه القاضي عياض حيث يقول: «وأمَّا فصاحة اللسان، وبلاغة القول فقد كان ﷺ من ذلك بالمحلِّ الأفضل، والموضع الذي لا يجهل، سلاسة طبعٍ، وبراعة منزعٍ، وإيجاز مقطعٍ، ونصاعة لفظٍ، وجزالة قولٍ، وصحة

(١) قعب الكلام: أخرج الكلام من قعر حلقه، لسان العرب، مادة (ق ع ر) دار صادر، بيروت.

(٢) البيان والتبيين، الجاحظ (ت: ٢٥٥هـ)، ٢/ ١٣، ١٤، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.

معان، وقلة تكلف، أوتي جوامعَ الكلمِ، وخص ببدائع الحِكَمِ، وعلم ألسنة العرب، فكان يخاطب كل أُمة منها بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويباريها في منزع بلاغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه، وتفسير قوله، مَن تأملَ حديثه وسيره علم ذلك وتحققه»(٣).

إنَّ المتأمل لهذين النَّصينِ للإمامين: الجاحظ، والقاضي عياض؛ يقف على عدة جوانب تمثل البلاغة في قمتها وبهائها، والبيان في تمامه وكماله وجماله؛ فقد نبها إلى عدة أمور تكشف عن عظمة شخصه ﷺ، من خلال أسلوبه البليغ، وتعبيره الحسن، وذلك من خلال ما يأتي:

أولًا: كثرة المعاني، وقلَّة عدد الحروف، وهو ما يؤكد أنه ﷺ قد أُعطي جوامع الكلم؛ ذلك أنَّ قلة الكلمات مع اتساع المعنى يدلان على ذلك؛ ففي الحديث عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أوتيتُ جوامع الكَلِم»(٤) فجوامع الكلم: عبارات موجزة حكيمة تتضمن كل عبارة منها معاني كثيرة مع الوفاء بالمعنى الذي تضمنته، والإيجاز أبرز سمات البلاغة العربيَّة(٥).

ثانيًا: أنَّه مع لجوئه إلى الإيجاز لم يكنْ إيجازًا مخلًّا بالمقصود أو بعيدًا عن المراد؛ ولهذا عدَّ الرافعيُّ الإيجازَ مما امتازت به بلاغة النُّبوة؛ إذ قال: «وأما القصدُ والإيجاز والاقتصار على ما هو من طبيعة المعنى في ألفاظه، ومن طبيعة الألفاظ في معانيها، ومن طبيعة النَّفس في حظها من الكلام وجِهَتَيْهِ -اللفظيَّة والمعنويَّة- فذلك مما امتازتْ به البلاغة النبويَّة، حتى كان الكلام لا يعدو فيها حركةَ النفس، وكأن الجملة تُخلق في منطقه ﷺ خَلقًا سويًّا، أو هي تنزع من نفسه انتزاعًا، وهذا عجيبٌ، حتى ما يمكن أن يعطيه امرؤ حظه من التَّأمل إلا أعطاه حظ نفسه من العجب»(٦).

ثالثًا: أن كلامه جاء خاليًا من الألفاظ الغَرِيبة والبذيئة والمبتذلة، فلم يُنقل عنه ﷺ في هذا الجانب شيء يقدح في بلاغته، أو يطعن في بيانه، ومرد ذلك إلى فصاحته ﷺ التي لم تكنْ فصاحة ألفاظ وحروف؛ وإنما هي فصاحة لغة (لفظًا ومعنى)، ومن ثم نرى الكلام يظهر على لسانه سهلًا ميسورًا، وفي عبارةٍ واضحةٍ مقبولةٍ، فهو في كلامه ﷺ لا يضطرب به الضعف، ولا تزايله الحكمة، ولا تخذله الرويَّة، ولا يباينه الصواب، بل يخرج

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض (ت: ٥٤٤هـ)، ١/ ٧٠، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٩هـ = ١٩٨٨م.
(٤) صحيح مسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: جُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، ١/ ٣٧٢، رقم: (٥٢٣).
(٥) بلاغة الرسول، د. علي العماري، صـ٥٠.
(٦) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي (ت: ١٣٥٦هـ)، صـ٢٤٦، مؤسسة هنداوي، ٢٠٢٢م.

رصينًا غير متهافتٍ، متَّسقًا غيرَ متفاوتٍ، لا يغلب على النفس التي خرج منها، بل تغلب عليه، ولا تسترسل به المخيلة؛ بل يَضبطه العقل، ولا يتوثب به الهاجس بل يحكمه الرَّأي، ولا يتدافع من جهاته، ولا يتعارض من جوانبه؛ بل تراه على استواءٍ واحدٍ في شدَّةٍ وقوةٍ واندماجٍ وتوثيقٍ[7]؛ وَلِمَ لَا؟! وقد فاقت فصاحته العرب، حتى أصبح أفصحهم على الإطلاق، وهذا ما عبَّر عنه الصديق -رضي الله عنه- بقوله: يا رسول الله، لقد طفتُ في العرب وسمعتُ فصحاءهم فما سمعتُ أفصح منك، فمَن أدَّبك؟ قال: «أدَّبني ربِّي، ونشأتُ في بني سعد»[8].

رابعًا: أنه جاء بعيدًا عن التَّكلف والتَّصنع؛ فقد كان ﷺ في هذا الجانب منزَّهًا عن التَّكلف في أقواله وأفعاله؛ قال تعالى:

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ (ص: ٨٦)

إذ التَّكلف هو: طلب الشيء بصعوبة، للجهل بطرائق طلبه بالسُّهولة، فالكلام إذا جُمع وطُلب بتعبٍ وجهدٍ، وتنوِّلت ألفاظه من بعد فهو متكلَّف[9]، فكلامه ﷺ لا كُلْفَةَ فيه، ولا معاناة؛ فطريقته إما فطرته اللغويَّة وسليقته البيانيَّة شأنه في هذا شأن فصحاء العرب من قومه، وإما الإلهام من الله الذي ضمن له بيان القرآن[10]؛ يشهد لذلك قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ (القيامة: ١٩).

إنَّ كل ما سبق يشهد بأنَّ اللغة التي كان يتحدث بها، والبيان الذي يتحدث به، والبلاغة التي يعبر بها تمثل معلمًا مهمًّا وبارزًا في شخصيته ﷺ، الأمر الذي يجعله دون ريب أحد جوانب عظمته ﷺ، ويتأكد لنا ذلك بسوق جملة من النُّصوص النبويَّة، التي صدرت عنه ﷺ، وهي كاشفة لعلوِّ بلاغته وسموِّ بيانه، ومؤكدة على إنعام الله -تعالى- بأن أعطاه جوامع الكلم:

١- عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «الخيلُ في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»[11].

فهذا الحديثُ مع قلَّة كلماته، ووجازة عباراته إلا أنه يفهم منه معانٍ كثيرة وعديدة، وهذا ما يشير إليه الإمام ابن حجر: «قال عياض: في هذا الحديثِ مع وجيز لفظه من البلاغةِ والعذوبةِ ما لا مزيد عليه في الحسن مع الجناس السَّهل

(٧) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، صـ٢١٩.
(٨) الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)، تحقيق: د. محمد بن لطفي الصباغ، صـ٤٥، عمادة شئون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض.
(٩) الصناعتين، أبو هلال العسكري (ت: نحو ٣٩٥هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، صـ٤٤، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٩هـ.
(١٠) السنة بيانًا للقرآن، د. إبراهيم الخولي، صـ٧٧.
(١١) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، (٤/ ٢٨)، رقم: (٢٨٤٩)، صحيح مسلم، كتاب: الإمارة، باب: الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، (٣/ ١٤٩٢)، رقم: (١٨٧١).

الذي بين الخيلِ والخيرِ؛ قال الخَطَّابي: وفيه إشارةٌ إلى أن المال الذي يكتسب باتخاذ الخيل من خير وجوه الأموال وأطيبها، والعرب تُسمي المال خيرًا، كما تقدم في الوصايا في قوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾ وقال ابن عبد البر: فيه إشارة إلى تفضيل الخيل على غيرها من الدواب؛ لأنه لم يأت عنه ﷺ في شيء غيرها مثل هذا القول»[١٢].

٢- وفي حديث آخر عن سيدنا أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: إن رسول الله ﷺ قال: «لا عدوى ولا صفَر ولا هامة»، فقال أعرابي: يا رسول الله، فما بال إبلي؛ تكون في الرمل كأنها الظباء، فيأتي البعير الأجرب فيدخل بينها فيجربها؟ فقال: «فمَن أعدى الأول؟»[١٣].

فالمطالع لهذا الحديث يقف دون عناء على لطيفِ تعبيرهِ، وحسن جوابه، فضلًا عن جمال أسلوبه، وهذا ما عبر عنه الحافظ ابن حجر في شرح حديث رسول الله ﷺ بقوله: «كانوا يعتقدون من العدوى، أي: يكون سببًا لوقوع الجرب بها، وهذا من أوهام الجهال؛ كانوا يعتقدون أن المريض إذا دخل في الأصحاء أمرضهم، فَنَفَى الشَّارع ذلك وأبطله، فلما أورد الأعرابي الشبهة ردَّ عليه النَّبي ﷺ بقوله: «فمَن أعدى الأول»، وهو جواب في غاية البلاغة والرَّشاقة، وحاصله: من أين جاء الجرب للذي أعدى بزعمهم، فإن أجيب من بعير آخر لزم التَّسلسل، أو سبب آخر فليفصح به، فإن أجيب بأن الذي فعله في الأول هو الذي فعله في الثاني ثبت المدعى؛ وهو أن الذي فعل بالجميع ذلك هو الخالق القادر على كل شيء، وهو الله سبحانه وتعالى»[١٤].

٣- كذلك قوله ﷺ: «أنْ تعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكنْ تراه فإنَّه يراك»[١٥].

وهذا شاهد ثالث نلمح من خلاله بلاغته وسمو بيانه؛ فهذا الحديث يستدل به على أنه أُعطي جوامع الكلم، يشهد لذلك قوله: «كأنك تراه»، والمعنى: أن يستحضر العبد ربه عند طاعته وعبادته استحضارًا كاملًا في عقله ووجدانه ووعيه، بحيث لا يزاحمه ولا يشغله شيء، فيُقبل في عبادته الإقبال كله، ويبلغ في هذا الاستحضار والخشوع والإقبال مبلغًا إلى درجة لو كان الله يُرى سبحانه لرآه فيها.

---

(١٢) فتح الباري: ابن حجر، رقَّم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، (٦/ ٥٦)، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

(١٣) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب: الطب، باب: لا صفر، وهو داء يأخذ البطن، (٧/ ١٢٨)، رقم: (٥٧١٧)، وصحيح مسلم، كتاب: السلام، باب: لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر، (٤/ ١٧٤٢)، رقم: (٢٢٢٠).

(١٤) فتح الباري: ابن حجر، ١٠/ ٢٤١، ٢٤٢.

(١٥) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب: الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة، ١/ ١٩، رقم: (٥٠)، وصحيح مسلم، كتاب: الإيمان، باب: الإيمان ما هو وبيان خصاله، ١/ ٣٩، رقم: (٩).

وأما قوله ﷺ: «فإنْ لم تكنْ تراه» كذلك، أي: مثل تلك الرؤية المعنويَّة فكُن بحيث إنه يراك؛ أي: كُن عالمًا متيقظًا، لا ساهيًا غافلًا، ومجدًّا في مواقف العبوديَّة مخلصًا في نيتك، فإنَّ من علم أنَّ له رقيبًا شاهدًا بحركاته؛ فلا يسيء الأدب طرفة عينٍ، ولا فلتة خاطرٍ، وأنه يظل على حال يرضاها خالقه[16].

ويقول الإمام الطيبي: «(كأنَّك) إما مفعول مطلق، أو حال من الفاعل، والثاني أَوْجَه؛ لأنَّه يحصل به للعابد ثلاث حالات، كما إذا قلت: كأن زيدًا قائم، فتصور له حالات: القعود، والانتصاب، والقيام؛ فتشبه حالة الانتصاب بالقيام؛ لأنك بإدخال (كأن) توهم أن له حالة غير القيام، وهي المشبه بالقيام، كما إذا رأى الناظر شخصًا من بعيد فتردد بين قيامه وقعوده، ثم خُيِّل له أنه إلى القيام أقرب، فقال: كأنه قائم، أي: يشبه انتصابه بالقيام، كذلك في الحديث، للعبد بين يدي مولاه حالات ثلاث؛ إحداها: حالة اشتغاله بالعبادة على سنن تسقط عنه القضاء، من حفظ شرائطها وأركانها وهيئاتها، وحالة تمكنه من الإخلاص في القصد، وأنه بمرأى من مولاه، وهو مراقب لحركاته وسكناته، وحالة مشاهدته واستغراقه في بحار المكاشفة، وإليه لمَّح قوله ﷺ: «وجعل قرة عيني في الصلاة»[17] و«أرحنا بها يا بلال»[18]، فشبَّه الحالة الثانية التي هي المراقبة بحالة المكاشفة التي هي من خواص النَّبي ﷺ في الدُّنيا، ووجه التَّشبيه حصول الاستلذاذ بالطَّاعة، والراحة بالعبادة، وانسداد مسالك الالتفات إلى الغير باستيلاء أنوار الكشف عليه، وهو ثمرة امتلاء زوايا القلب من المحبوب، واشتغال السر به، ونتيجته نسيان الأحوال من العلوم، واضمحلال الرسوم، فلما استبان الصبح أدرج ضوءه بإسفاره أنوار ضوء الكواكب، فقوله: «فإن لم تكن تراه» تنزل من مقام المكاشفة إلى مقام المراقبة، فينبغي أن يقدر؛ فاعلم قولي: «إنه يراك»»[19].

إنَّ المطالع لما ذكره الإمام الطِّيبي يقف على سموِّ بلاغته ﷺ وعلى فصاحةٍ لا ينكرها مُنصفٌ؛ ولهذا نقلنا النَّص بتمامه مع طوله؛ تأكيدًا على هذا الجانب وإظهارًا لجوانبه، ووصفًا لبلاغته ﷺ بما يميزها عن غيرها، ويكشف عن سموها وتفرد صاحبها.

إنَّ بلاغةَ النَّبي ﷺ منبعٌ ثريٌّ لا يغيض، ومعينٌ فياضٌ لا ينضب، وهو أعلى بيان

(١٦) ينظر: السنة بيانًا للقرآن، د. إبراهيم الخولي، صـ٨٩.

(١٧) مسند أحمد، ١٩/ ٣٠٥، رقم: (١٢٢٩٢).
(١٨) المعجم الكبير، الطبراني، ٦/ ٢٧٧، رقم: (٦٢١٥).
(١٩) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ(الكاشف عن حقائق السنن)، الطيبي (ت: ٧٤٣هـ)، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، ٢/ ٤٣٠، ٤٣١، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط: ١، ١٤١٧ هـ = ١٩٩٧م.

بشري؛ حيث يأتي لبيان القرآن الكريم، وفوق بيان البشر فهو أفصح الخلق لسانًا وأحسنهم بيانًا، وهذا ما أشار إليه الأستاذ أحمد حسن الزيات فقال: «إن بلاغة الرسول ﷺ من صنع الله، وما كان من صنع الله تضيق موازين الإنسانِ عن وزنه، وتقصر مقاييسه عن قياسه؛ فنحن لا ندرك كنهه وإنما ندرك أثره، ونحن لا نعلم إنشاءه وإنما نعلم خبره، هل يدرك المرء من آثار الشمس غير الضوء والحرارة؟ وهل يعلم من أسرار الروض غير العطر والنَّضارة؟ وهل يجد في نفسه من أغوار البحر غير الشعور بالجلالة والرَّوعة؟ إنَّ البلاغة النبويَّة هي المثل الأعلى للبلاغة العربيَّة، وإذا كان كلام الله كتابَ البيان المعجز؛ فإنَّ كلام الرسول ﷺ سُنة هذا البيان، وإذا كان البلاغ صفة كل رسول فإن البلاغة صفة محمد ﷺ وحده»[٢٠].

وقصارى القول: إنَّ مظاهر العظمة في شخصه ﷺ وإن كثرت، لكن يبقى أن ما يتعلق بفصاحته وبلاغته لهو من أوضح الجوانب وأبرزها؛ إذ يعبر عن الكثير بالقليل، ويقرب البعيد بالمثل السهل اليسير، ويربط بين الجوانب المعنويَّة والشواهد الحسيَّة؛ بما ينبئ عن إحاطةٍ باللغة العربيَّة، وإدراك لجوانبها وفنونها، وكيفيَّة استخدامها ومواضع استعمالها.

(٢٠) وحي الرسالة، أحمد حسن الزيات، ٣/ ١٠٥، دار الثقافة، بيروت، ط:٦، ١٣٩٣هـ = ١٩٧٣م.

رياض السنة